العدد (1797) السنة السابعة - الأثنين (17) أيار 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

أصوات الشهداء تتصاعد من مقابرنا الجماعية، فهل نحن صاغون لها؟

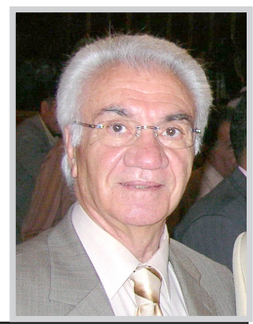

استقر الرأي في العراق، وكما يبدو، على أن يكون السادس عشر من أيار/ مايس من كل عام يوم المقابر الجماعية التي امتلأت بها أرض العراق. وتشير المعلومات المتوفرة إلى الآن عن اكتشاف ٢٤٠ مقبرة جماعية موزعة على ١٠٠ موقع في مختلف مناطق العراق، وفق ما جاء في المؤتمرين المهمين اللذين عقدا في لندن والنجف للبحث في أمر المقابر الجماعية. ولم ينته البحث عن بقية المقابر الجماعية إلى الآن ولا بد من مواصلته.

كاظم حبيب

هذه المقابر الجماعية تحتضن رفات عشرات ألوف الناس الذين قتلوا أو استشهدوا في فترات مختلفة من حكم نظام البعث، وخاصة بعد الانقلاب الدموي الذي نظمه صدام حسين ضد مجموعة كبيرة من قياديي حزب وحكومة البعث في تموز من العام ١٩٧٩ حيث قتل منهم ٦٣ شخصاً بعد اتهامهم بالتآمر على حكمه وقيادته، ومن ثم إزاحته لأحمد حسن البكر الذي شاركه في كل الجرائم التي ارتكبت في العراق حتى نهايته على أيدي جلاوزة النظام الفاشي الذي شارك في بنائه في العراق.

تضم المقابر الجماعية عدداً كبيراً من بنات وأبناء وأطفال العراق ممن قتل أو استشهد لأسباب مختلفة على أيدي جلاوزة النظام منهم بشكل خاص:

١. مناضلون سياسيون قتلوا تحت التعذيب أو في السجون والمعتقلات البعثية وهم مؤيدون أو ينتمون إلى مختلف القوميات والأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والأحزاب السياسية.

٢. عدد كبير جداً من الكُرد الفيلية الشباب الذين هجرت عائلاتهم إلى إيران وقتلوا في السجون والمعتقلات.

٣. الكُرد الذين استشهدوا أو غيبوا وهم أحياء ودفنوا في مقابر جماعية، سواء أكانوا من النساء أو الأطفال أو الرجال ، والذين قدر عددهم بحوالي ١٨٢ ألف نسمة في عمليات ومجازر الأنفال ضد الإنسانية والإبادة الجماعية.

٤. الجنود والضباط الذين قتلوا بتهمة الجبن أو الاختلاف مع "القائد الضرورة" أو جمهرة من الجنود الذين قتلوا في جبهات القتال وكانت عائلاتهم مهجرة، سواء أكانوا من عرب الجنوب والوسط أم من الكُرد الفيلية.

٥. عدد غير قليل ممن حاول التآمر على صدام حسين ونظامه الدكتاتوري ثم جرى الكشف عن تلك المحاولات وقتل أفرادها ، سواء أكانوا أعضاء في حزب البعث الحاكم أم من المستقلين.

إن هؤلاء جميعاً نسمع أصوتهم تتصاعد من المقابر الجماعية تعلن احتجاجها وتطالب المجتمع العراقي والدولة العراقية بالكشف عن المجرمين القتلة الذين تسببوا في تلك الجرائم ومعاقبتهم وإعادة حقوقهم إلى من تبقى من عائلاتهم.

ولكن علينا أن ننتبه إلى أن في العراق مقابر جماعية أخرى غير تلك التي تسبب بها نظام البعث الدموي، مقابر جماعية نشأت بفعل الجرائم التي ارتكبتها قوى الإرهاب والمليشيات الطائفية، سواء أكانت سنية أم شيعية، في المناطق التي سيطرت عليها وقتلت الكثير من الناس الأبرياء. وكذلك أولئك الذين عذبوا وقتلوا في السجون والمعتقلات الأمريكية والعراقية بواسطة أجهزة أمن وقوات الدولتين، والتي كشف عن هذه الرفات أو لم يكشف عنها إلى الآن، والتي دفنت في مقابر جماعية جديدة، ترفع هي الأخرى صوت الاحتجاج وتطالب بالكشف عن المجرمين القتلة وتقديمهم للعدالة بدلاً من السكوت عنهم. إذ أن السكوت عن مثل هذه الجرائم يسهم في توفير مستلزمات تكرارها دون رادع أو وازع من ضمير.

إن التفكير الإنساني السليم يفرض على الحكومة العراقية اتخاذ كافة الوسائل الكفيلة بالكشف عن كل الجرائم المرتكبة في العراق خلال العقود الخمسة المنصرمة، ومنها شهداء المقابر الجماعية، سواء تلك التي تسبب بها نظام البعث أم قوى الإرهاب والصراع الطائفي السياسي والقتل على الهوية الدينية والمذهبية والفكرية.

لنتذكر دوماً الشهداء الذين تحتضنهم المقابر الجماعية فهم من بنات وأبناء هذا الشعب ومن حقهم علينا أن نبحث عن قتلتهم وأن نعوض عائلاتهم وأن نسعى للتخفيف النفسي والعصبي عن تلك العوائل التي تحملت الكثير من جراء ظلم وجبروت واستبداد وقسوة النظام في العراق ومن شراسة قوى الإرهاب والقوى السياسية الطائفية المتطرفة والمسلحة التي تسببت في موت الكثير من البشر.

الذكر الطيب للشهداء والخزي والعار لقتلتهم.

الملف السياسي العراقي وجرعات الثقافة

يبدو ان الملف السياسي العراقي يحتاج الى جرعة ثقافية عالية، او ربما يحتاج الى نوع الاشعاع الثقافي(بمعناه العلاجي) لانقاذه من اورامه الغريبة، ومن اعراض الكثير من الامراض التي تغلغلت تحت جلود البعض من السياسيين الذين ظلوا يتوهمون دائما بامراض التاريخ السياسي للدولة العراقية القديمة، هذا التاريخ الذي ظل في الكثير من وجوهه تاريخ مهيمنات وتاريخا حافلا بالانقلابات والعسكر والإيديولوجيات، وألا تاريخ للدولة المدنية فيه، فضلا عن القناعة والتبشير بعدم القدرة على حيازة شروطها واسبابها، تحت وهم ان الشخصية العراقية لا تصلح لهذا الدور، او ان بيئة الجماعات العراقية هي بيئة احتراب دائم الى اخره من الاوهام المرضية وهذيانات اصحابها..

علي حسن الفواز

وان اية محاولة لتغيير هذا الواقع سيواجه بالقوة والتهديد بالعنف، وبقوة المعسكر الذي تحول طوال عقود الى تاريخ افتراضي للامة، وللنمط وللايديولوجيا النقية، مثلما تحول الى تاريخ اشكالي، له مركباته وعقده الاخلاقية والثقافية، وله متحفه الذي يمارس الموتى عبره سلطة الهيمنة والتوجيه والتهديد، خاصة وان الجمهور العراقي قد ورث من هذا التاريخ القهري امراضا نفسية وسلوكية وحتى فقهية تحولت الى نوع الفوبيا التي مازال (ذاك البعض) يستعيدها لاخافة هذا الجمهور من خطيئة البرابرة الذين يساكنون الجدار والسرير والكتاب والاحلام، والذي لايمكن ان يكونوا جزءا من الحل على طريقة كافافيس!

هذا الملف السياسي الغامض بالكثير الاجندات والعلاقات والوصايا يضعنا امام استفسارات واسئلة، مثلما يضعنا امام لعبة البحث عن شروط قياسية ووصفات علاجيبة للاطمئنان الكامل عبر اعادة انتاج ادوار السياسي الموظف والسياسي المهني والسياسي الحزبي باتجاه انقاذنا من محنة العلل الوطنية والقومية ومن متاهة انتظار الحلول، وباتجاه حضاري وانساني يمكن ان يسهم في ترميم تاريخ طويل من الخرابات التي تركها المحاربون القدامى والاستبداديون القدامى، والذين يعملون الآن على انتاج بعض وجوهه من خلال مظاهر اخرى للاستبداد والحرب..

جرعة الثقافة بمعناها الانساني قد تبدو غريبة على جسد اعتاد ان يكتم امراضه الكثيرة، وان يرفض شيخوخته وعللها، واحسب ان هذه الجرعة تبدو خارج السياق الذي اعتاده هذا الجسد في اللجوء الى مايشبه الطب الشعبي واحيانا طب العرافات واحيانا قراءة كتب(الباه وعودة الشيخ الى صباه) لانقاذ علله الجسدية الوطنية والبرامجية، والسيطرة على اعراضها خشية تتحول الى امراض مزمنة والى انماط علاجية معقدة وبالغة الثمن والاثر لم يعد هذا الجسد بتوصيفه الشعبي قادرا على تحمل اثارها المباشرة ولا حتى اعراضها الجانبية..

جرعة الثقافة هنا هي دافع لايجاد الاستعدادات لتقبل واقع جسداني جديد، يماثل ماهو تاريخي، والدعوة الى ان يكون قادرا على تقبل معطياته بعيدا عن الاحساس بالخواء وبعيدا عن انتاج عوامل قهرية طاردة ترفض الاقرار بوجود العلة، والتي ستتحول بالضرورة الى عقد والى اشكال مرضية ستضر الجميع، وربما ستسهم في ايجاد اعراض اخرى للامراض السياسية والاقتصادية والامنية..

السؤال يكمن في الكيفية التي يمكن من خلالها توصيل العلاج الثقافي الى الجسد السياسي العليل، والى اعطاء مريدي هذا الجسد حلولا لاتدخل في باب المعالجات الصوفية والسحرية، او اعطاء التعاويذ والرقى، بقدر ماتدخل في اطار المقاربات الواقعية والمعاينات السريرية التي تؤكد ظاهرة العلة، وتؤكد الحاجة الى علاج سريع ومركز لتفادي الاصابة بالغيبوبة السياسية.. فهل يعقل ان يمارس اصحاب الجسد السياسي طرقهم الغرائبية في البحث عن علاجات بالانابة، والاستعانة باصحاب الطرق واصحاب التكايا وممن خارج الاختصاص العلاجي للبحث عن عشبة كلكامش التي يبدو انها باتت خارج متن الفنطازيا الوطنية كما يتخيل هؤلاء الاصحاب؟ وهل يعقل ان يظل البعض لايثق بالبعض الاخر، ويضع كل الحجر امام هذا البعض لكي لايمنحه الفرصة الكاملة والكافية لاكمال المشوار وللعبور الى الضفة الثانية وحيازة مايمكن ان يسهم في تشكيل ملامح قارة للمشهد السياسي الجديد الذي يحتاج الى ثقة الناس به قبل ثقة السياسيين انفسهم؟ وهل يعقل ان يرحل البعض من اصحاب الجسد السياسي الى مدن الهامش للايهام بصناعة متن وطني، والتهديد بقوة واهمة باشاعة الموت وامراض الارهاب مقابل السيطرة على صناعة هذا المتن؟

اظنها اسئلة غريبة حقا، وغرابتها هي التي تجعلها بحاجة الى جرعة دوائية واخلاقية ومعرفية من الثقافة، بكل ماتعنيه الثقافة من افكار وبرامج ووجهات نظر وحراك مادي ومعنوي، وبما تمثله من منظومات واجتهادات ورؤى ومشاريع وخدمات وصناعة متميزة للرأي العام..

لذا لانملك الا ان ندعو الجميع لتقبل هذا الدور العلاجي، وتقبل الواقع الجديد الذي تحكمه مجموعة من التحولات التي تحولت الى تاريخ جديد ينبغي احترام تشكلاته، خاصة وان البعض مازال يفكر بعقلية ماضوية مأزومة بعقد الدولة القديمة وعقد مهيمناتها القديمة التي تركت لنا وطنا مذبوحا وشعبا ملاحقا بحروب مثيولوجية واعداء لاحدّ لهم، ومديونيات كونية وسياسات شوهاء ومعسكرات تكفي لصناعة حرب عالمية رابعة..

وطبعا فان هذا النمط من التفكير هو الذي لايرى الاّ ماهو ظلامي واسود، ولايفكر الاّ بالطريقة الشعبية التي تقول(لو العب..لو اخرب الملعب) واعتقد ان هذا التفكير هو العلامة السريرية على المرض الذي يحتاج الى ثقافة كاملة تبدأ من ثقافة تغيير عادات التفكير الى عادات الكلام وانتهاء بثقافة انتاج عادات الحوار مع الاخرين وعدم الميل المرضي لصناعة المزيد من الاعداء..

سنن التغيير وإدارة التقدم في الحياة

عدنان الصالحي

التَغيير علامة مهمة من ملامح الحياة وعنصر أساسي لديمومتها، وسنة ثابتة من السنن الإلهية تفرض نفسها على حياة الإنسان، لانها حتمية فرضها القانون التكويني الإلهي، لذلك فان السمة الإنسانية المميزة المنبعثة من عقله هي البحث عن التكامل والتغير نحو الأحسن فتبعثه على السعي المستمر والحركة الدؤبة.

ولكون الإنسان كائن عاقل بل وسيد المخلوقات على وجه الأرض فانه مختار السلوك الصادر عنه وهو نابع من الشعور بالوعي والتفكير المسبق عادة، لذلك يحاول أن يتكيف مع المتغيرات بإحساسه العقلاني وليس مجرد تكيف غريزي وانعكاس جبلّي كما هو في الحيوانات، فهو يختار ويقرر بنفسه ما يريد، لذا فان ما يحدث على وجه الأرض هو نتيجة طبيعية لقرارات الإنسان في اغلب الأحوال فيما تختلف استجابة كل إنسان عن الإنسان الآخر تجاه الظروف التي تواجهه حسب طبيعة وطريقة تفكير كلا منهم.

أما التغيير الكلي لمجموعة الأمم أو الأمة الواحدة فهو لا يجري عادة إلا أن تكون التغييرات الداخلية قد أخذت منحاها في أجزاء المجتمع حيث يقول عز من قائل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد١١)، فالأمم لا تستطيع أن تغير واقعها إلاّ بعد أن يغير أفرادها من أوضاعهم بشكل مضطرد بمجارات القانون الفطري الإلهي، ولذا تجد التوقف الفكري والعقلي والحضاري هو السبب الأول لسقوط الدول مهما كان حجمها ونوعها والأمم التي لا تستجيب للتغيير فهي تحكم على نفسها بالموت.

قد يرى البعض بان التغييرات جارية في جميع المجتمعات او لنقل في مجتمعاتنا الشرق أوسطية خصوصا بعد دخول العالم مجال العولمة، ولكن هل التغييرات هي مجرد التغيرات الشكلية والظاهرية أم الجوهرية والعلمية العقلية؟.

ان الدول التي يغيب فيها التغيير عادة هي الدول ذات النظام الشمولي، وهي تعاني في واقع الحال من ضمور وموت سريري في جميع جوانبها الفكرية والبنيوية والاقتصادية والاجتماعية وقد يصل الأمر إلى الجوانب العقائدية التي يحاول الدكتاتور أو الحاكم المستبد قتلها داخل النفس البشرية.

وقبال ذلك فان عملية التغيير هي أساس راسخ لقيام دولة المؤسسات والحكومات الناجحة والمنظمات والتجمعات، وهي حالة تعاكس الجمود والتوقف حيث يشير الى ذلك المرجع الديني الراحل الإمام السيد محمد الشيرازي(رحمه الله) بقوله:

(أما المجتمع الراكد فهو الذي يقف في مكانه بدون تجديد في فكر أو صنعة.....، في المجتمع الراكد يركد كل شيء ويسير الزمان ببطء وتخلو الحياة عن التجدد ويكون كل فكر جديد وحركة جديدة موضع الإعراض.. المجتمع المتصاعد لابد أن يكون التصاعد من ذاته وكل جديد يزيد الاجتماع تصاعداً وتحركاً إلى الأمام..).

مقدمات التغيير

ان التغيير لايمكن ان يتحقق دون وجود عناصر ومقدمات اساسية يمكن ان تساهم في تحقيق هذه العملية ومن هذه المقدمات والعناصر:

١- وجود الحريات والتعددية فمما لاشك فيه بان من أهم أرضيات التغيير هو وجود الجو المتسع لطرح الآراء وإطلاق الكلمة الحرة، فلابد من أن يجد أهم مقدماته متمثلة بإخراج المجتمع من ظلمة الاستبداد الى نور الحرية، فلا يمكن لشعب أو لأمة التفكير بتطوير نفسها ومواكبتها الحضارات العالمية إذا كانت تحت تسلط حكومات لا تريها سوى عصا الخوف وجزرة الطاعة.

هذه الأنظمة الفاسدة التي تحاول قمع الشعوب والأمم وجعلها في أسفل الجب دائما، أصبحت اليوم من اكبر العقبات أمام التغيير الإنساني، ولعل ما شهده العراق من انغلاق عن العالم الخارجي دام لثلاث وخمسون عاما تقريبا اكبر دليل على طريقة احتجاز الشعوب عن التواصل مع باقي الأمم.

مؤسّسة "فريدوم هاوس" المهتمة بالشؤون الديمقراطية نشرت تقريرا مفصلا عن حالة الأنظمة الفاسدة والدكتاتورية في العالم جاء فيه:

(إن أنظمة دكتاتورية براغماتية او غنيّة بالطاقة وذات توجّه نحو السوق... تحاول أن توظّف قوى السوق وفي نفس الوقت تحتفظ بنظام سياسي منغلق فتستمّد سطوتها الاقتصادية القوية من خلال النفط أو الرساميل او الفوائض التجارية الطويلة الأجل).

وكانت المنظمة قد صنفت عام ١٩٧٧ما نسبته ٢٨ ٪ من بلدان العالم على إنها بلدان فيها حرية، وارتفعت هذه النسبة الى ٣٥ ٪ وفي ١٩٨٧ ازدادت لتصل الى ٤٢ ٪ وفي ١٩٩٧ وصلت الى ٤٧ في المئة في نهاية ٢٠٠٧.

٢- تحليل وفهم معطيات واقع المجتمع المستهدف للتغيير وما سيواكب العمل من متغيرات مع استمرارية البحث والتدقيق في كل مرحلة، فلا يمكن التغيير وفق معطيات ثابتة لزمان محدد أو مكان واحد دون مراعاة باقي الجهات المجانبة في الحياة والمتداخلة في المسير.

٣- تحديد الهدف الرئيسي من التغيير، فلكل حركة هدف ولابد أن يكون عنوان التغيير واضحا يفهمه البسطاء فضلا عن المفكرين فالغموض يربك الجميع ويمهد لفشل المشروع والمقولة الشهيرة بان (الناس أعداء ما جهلوا) كفيلة بالقضاء على أي تغيير إن كانت تشوبه الشبهة أو الضبابية في الأهداف.

٤- التدرج في مراحل التغيير بنسب معينة وحسب الأجواء المحيطة وبعيدا عن إيجاد تغيير الصدمة، فالثقافة الإنسانية كما قلنا سابقاً هي حصيلة تراكم تاريخي متشبث في أعماق النفس لا يمكن تغييره بسهولة، بل لابد من التدرج الطبيعي القائم على مبدأ الإقناع والتبصير.

٥- تحديد وترتيب ملامح التغيير (علميا ،ثقافيا،فكريا) فلا يمكن جعل الأمور مفتوحة على جميع الاحتمالات بل يجب أن تكون هنالك أولويات لكل مرحلة.

٦- عدم تسطيح التفكير في عملية التغيير، فالوضوح والشفافية والغور في أعماق الأمور وحلها ومحاكاة مشاكلها جذريا كفيل بإيجاد تجاوب ملموس من الجميع لان الإنسان متجاوب مع من يلامس جذور مشاكله لا شكلها.

٧- إن يكون التغيير صادراً عن قرار ودراسة وان لا يكون ردة فعل لحالة مرحلية، أو محاولة لعبور أخفاقة آنية.

٨- إيجاد القناعات والمقومات في المجتمع بضرورة التغيير لان العمل النابع من قناعة يكون بمستوى الوجوب لدى الإنسان أما المفروض على الآخرين فسرعان ما سيفشل بزوال المؤثر.

٩- آليات التغيير يجب إن تتمتع هي الأخرى بالجديد الجاذب عقليا وعلميا وثقافيا وان لا يكون على أساس العناوين البراقة دون عمق الهدف وبعد التخطيط.

١٠- عدم ربط التغيير بسقف زمني فالأنبياء والمصلحين تناوبوا على مرور الأزمان من اجل التغيير بحيث اكمل اللاحقون ما قدمه السابقون.

١١-عدم ربط التغيير باسم معين أو شخصنته بعنوان واحد بل لابد من جعله شاملا ومتسعا للجميع، وعدم استهداف طبقة دون أخرى في التغيير.

لقد أصبح مطلب التغيير اليوم هدف يطلبه الكثيرون خصوصا ممن وجدوا بان الحياة بدأت تفقد رونقها وجذوتها، في ظل محاولات إماتة الفكر البشري وتحويله الى كائن آلي ، ولا نغالي إذا ما قلنا إن أكثر مشاكل الشعوب الفقيرة إن لم يكن أساسها ناتج من الجمود وعدم البحث عن التغيير، فنجدها قد تأخرت عن وضع العالم بعشرات السنين ان لم تكن المئات فبينما تعيش بعض الدول المتقدمة مرحلة التقنيات الفضائية تعاني تلك الدول من فقدانها ابسط مقومات الحياة كالماء والكهرباء والخدمات الصحية.

قد تكون الأسباب متعددة في ذلك إلا إن السبب الرئيسي يبقى هو تخوف تلك الشعوب من التغيير وعدم تحركها لتغيير واقعها بيدها سواء السياسي أو الاقتصادي أو العلمي، جعلها ترتمي في أودية الفقر والتخلف، وهي لن تخرج من ذلك لا بمساعدات دولية ولا بقروض مالية إن لم تتخذ قرارها بإدارة عجلة التغيير بنفسها.

فالأمم لا تستطيع أن تغير واقعها إلاّ بعد أن تغير من ذاتها، وفهم سنة التغيير في الحياة والقناعة بان زمام الأمور مملوكة بيد الإنسان بعد الباري (عزوجل) وامتلاك القدرة على التأثير بصنع الواقع بما يمكن أن يقع في جميع المساحات الحياتية حتى يمكن استباق الأحداث والسيطرة عليها ومن ثم التحكم السليم في إدارة الحياة وهذا هو مقصد الكلام.

عدسة / مهدي الخالدي